ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:

Abdul Rahman Muhammed Rabean

faculty member at the College of Da`wah and Fundamentals of Religion at Umm Al-Qura University

Keywords:

controls, thinking, Ibn al-Qayyim.

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	14 Aug 2022
Accepted	17 Sep 2022
Available online	1 Oct 2022

REGULATIONS OF THINKING IN ISLAM THROUGH THE WORKS OF IBN AL-QAYYIM

A B S T R U C T

Unlike all other creatures, the human mind and his ability to perform complex thinking is a trait granted by Allah to man in particular. Islam, in the same vein, has come to urge using the mind in contemplation and consideration of the Kingdom of Allah, along with the signs and religions revealed. Also, it has provided a set of legislation that preserves the mind and protects it from getting astray. By virtue of human nature, man is exposed to avoiding the righteous way and making improper judgments. Here arises the significance of getting familiar with the controls that guide the mind in its thinking. This piece of research addresses this issue through delving deep into the writings of an eminent Islamic scholar, namely, Imam Ibn al-Qayyim, may Allah have mercy on him. Following a thorough study of his works, the researcher has found three key controls. They are as follows: the first is a control of induction, the second is a control of fairness, and the third is a control of good pronunciation and integrity of expression. Examples and evidence extracted from Ibn al-Qayyim's works and books are provided to explain these controls.

© 2022 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/

ضوابط التفكير في الإسلام من خلال مؤلفات ابن القيم

عبدالرحمن محمد ربعين/عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

الخلاصة:

يعد عقل الإنسان وقدرته على التفكير المركب خصيصة اختصه الله بها عن سائر مخلوقاته، وجاء الإسلام بالحث على إعمال العقل بالتفكر والتدبر والنظر في ملكوت الله وآياته ودينه، وجاء بجملة من التشريعات التي تصون العقل وتحميه من أن يقع في الخطأ أو الانحراف.

لكن بحكم الطبيعة البشرية فإن الإنسان معرض لمجانبة الصواب والوقوع في الأحكام الخاطئة، ومن هنا تبرز أهمية معرفة الضوابط التي يسترشد بها العقل في تفكيره، وهذا البحث يسلط الضوء على هذه الإشكالية من خلال دراسة مؤلفات أحد علماء الإسلام وهو الإمام ابن القيم رحمه الله، وتوصل الباحث بعد تتبع لمؤلفاته

إلى ثلاثة ضوابط مهمة: الأول ضابط الاستقراء، والثاني ضابط الإنصاف، والثالث ضابط حسن اللفظ وسلامة التعبير. وأوضح هذه الضوابط بالأمثلة والشواهد من خلال مصنفاته وكتبه.
كلمات مفتاحية: التفكير ، ضوابط ، ابن القيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن من أجل نعم الله على بني آدم هذا العقل الذي ركبه فيهم وميزهم به عن سائر مخلوقاته، وجعل تحمّل التكليف مناطا به، وهدى الإنسان إلى الطرائق الصحيحة لإعمال هذه الأداة، والمسارات التي يجول فيها كي لا يتخبط، وأحاطه بجملة من التشريعات والأحكام التي تحميه من أن يقع في الزلل والخرافة والوهم، وحث في مواضع كثيرة من الوحي إلى إعمال هذا العقل في تدبر آياته والنظر في أحكامه للوصول إلى هدايات الله فيها، وقد امتثل أهل الإسلام من الصحابة ومن بعدهم تلك التوجيهات فتحقق لهم من العمق في فهم كلام الله ودينه وأحكامه ورد العاديات عليه ما يدهش ويبهر، وأصبح العقل الإسلامي عقلا متميزا عن سواه من العقول في نظره وتفكيره وتأمله واستنباطه مما يحدو الناظر إلى أن يتلمس جوانب هذا التميز.

وعقل الإنسان وتفكيره هو جزء من بشريته ولذا يلحقه النقص ويدخل عليه الخطأ، ويشتد الأمر حين يكون ذلك في معرض تقرير العلم وتبيين الحق والدفاع عن الدين والشريعة.

من هنا تأتي ضوابط التفكير لتُرشّد تلك العمليات العقلية وتمنحها قدرا من الدقة لتكون عمليات صحيحة والنتائج المترتبة عليها مستقيمة.

ومن العلماء الأفذاذ الذي تشهد له تصانيفه ومؤلفاته بعبقرية وألمعية عالية، الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، لذا أردت في هذا البحث أن أستعرض أهم الضوابط التي وجدتها عند ابن القيم ورأيته مستخدما لها، وهي ثلاثة ضوابط: تحدثت في المبحث الأول عن الاستقراء، وفي المبحث الثاني عن الإنصاف، وفي المبحث الثالث عن العناية بالألفاظ وسلامة التعبير.

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

1. التراث الغزير الذي خلفه الإمام ابن القيم رحمه الله وما يحويه من علوم ومعارف في شتى مجالات الشريعة.

2. إبراز لأحد الجوانب المشرقة والمهمة في التراث العلمي لعلماء المسلمين وهو ما يتعلق بطرائق التفكير ومجالاته وضوابطه وآفاته.
3. استلهام تلك النماذج والمنهجيات في واقع الثقافة الإسلامية المعاصرة.

- خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث ثم الخاتمة.

المبحث الأول: ضابط الاستقراء.

المبحث الثاني: ضابط الإنصاف.

المبحث الثالث: ضابط حسن اللفظ وسلامة التعبير.

والخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

التمهيد

- تعريف التفكير.

الفِكر والفَكر: إعمال الخاطر والنظر في الشيء، والتفكّر: التأمل، قال الليث: التفكُّر اسم التفكير. والمصدر: الفكر. (انظر: الجوهري، 1999، 783/2، ابن منظور، 1970، 65/5، الفيروزآبادي، 2005، 588).

فيتبين أن التفكير عملية ذهنية قائمة على التأمل والنظر في أمر من الأمور للوصول لنتائج وحقائق معينة، فهو (سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمسة) . (جروان، 2007، 40).

المبحث الأول: ضابط الاستقراء.

- المطلب الأول: تعريف الاستقراء.

يُعرّف الاستقراء بأنه (تلك الطريقة التي تقوم على عرض عدد كاف من الأمثلة الخاصة وفق برنامج تعليمي يساعد الفرد على التوصل إلى الحقيقة أو القاعدة بنفسه) . (سعادة، 2011، 147).

ويقول أحد الباحثين في تعريفه: هو (عملية استدلال عقلي تستهدف التوصل إلى استنتاجات أو تعميمات تتجاوز حدود الأدلة المتوافرة أو المعلومات التي تقدمها المشاهدات المسبقة) . (جروان، 2007، 66).

فالاستقراء يقوم على تتبع عدد كافٍ من النماذج والأمثلة المندرجة في إطار واحد ثم فحصها وإدراك مواطن الاتفاق فيها للتوصل إلى نتيجة كلية بخصوصها.

والاستقراء يشكل ضابطا من أهم ضوابط التفكير، بحيث يحمي من الوقوع في التفكير المتسرع العجول والوصول لأحكام ونتائج لا يدعمها الواقع ولا تقترب من الحقيقة وتؤدي إلى خلل في البناء العلمي والمعرفي.

- المطلب الثاني: الاستقراء في القرآن.

حين يتأمل الواحد القرآن يجد فيه إشارات تحث على الاستقراء والتتبع للوصول إلى النتيجة الصحيحة، فالله عز وجل أمر عباده في عدد من الآيات إلى النظر في الكون وما يحوي من مخلوقات وما يجري فيه من السنن التي لا تتخلف ثم الاستدلال بكل ذلك على الخالق سبحانه، وكذلك أمر بالنظر في كل ما يُزعَم أنه آلهة تعبد من دونه وهل تحقق في واحد منها أنها تضر أو تنفع، كما في قوله عز وجل: "واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا" [الفرقان:3]، فالأول استقراء لإثبات استحقاق الله للألوهية والثاني استقراء لإثبات عدم صدق تلك الآلهة المعبودة من دونه.

- المطلب الثالث: أنواع الاستقراء عند ابن القيم.

يستخدم ابن القيم رحمه الله الاستقراء في مصنفاته لإثبات الحقائق وتأصيل القواعد وتقرير المعاني الشرعية، وبحسب ما وقفت عليه فإنه يستخدم الاستقراء على طريقتين:

الأولى: استقراء شواهد معنى معين في القرآن والسنة.

يقرر ابن القيم المعاني الشرعية من خلال تتبع نصوص القرآن والسنة والنظر المتأمل فيها وإخراج ذلك المعنى الذي تشهد له نصوص عديدة متظافرة، وأضرب لذلك أمثلة من كلامه رحمه الله:

1) إثبات الأسباب في الشرع.

أنكرت بعض افرق الإسلامية مسألة الأسباب وأنها تؤدي لمسبباتها، ولما كانت هذي المسألة من الوضوح بمكان تتبع ابن القيم آيات القرآن والمواضع التي تثبت الأسباب ورصد في ذلك عددا كبيرا منها وأثبته عند مناقشته للمسألة.

يقول رحمه الله: "والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله: }بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ{ [المائدة: 105]،} بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ{ [الأعراف: 39]، }ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ{ [الحج: 10]، }فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ{ [الشورى: 30]، }كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ{ [الحاقة: 24]، }جَزَاءً وِفَاقاً{ [النبأ: 26]، }فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الله كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ{ [النساء: 160]، }فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ الله وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ{ إلى قوله: }وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ{ [النساء: 156].

وقوله: }فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً{ [المائدة: 13]، وقوله: }فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ{ [آل عمران: 159]، وقوله: }ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ الله{ [غافر: 22]، وقوله: }ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا{ [البقرة: 275]، وقوله: }ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ{ [محمد: 3]، وقوله: }فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً{ [الحاقة: 10] وقوله: }فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ{ [المؤمنون: 48]، }فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{ [المزمل: 16].

}فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا{ [الشمس: 14]، وقوله: }فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ{ [الزخرف: 55-56]، وقوله: }وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ{ [ق: 9]، وقوله: }حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ{ [الأعراف: 57]، وقوله: }يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ{ [المائدة: 16]، وقوله: }قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ{ [التوبة: 14]، وقوله: } وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{ [النبأ: 14: 16.

ومن نتائج استقرائه لهذه المسألة في القرآن أن وضع مجموعة من القواعد النافعة المعينة على معرفة السبب، فقال:

1. وكل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببًا له كقوله: }وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله{ [المائدة: 38] وقوله: }الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ{ [النور: 2]، وقوله: }وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ{ [الأعراف: 170]، وقوله: }الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ{ [النحل: 88]، وهذا أكثر من أن يستوعب.

2.وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء وهو أكثر من أن يستوعب، كقوله: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً{ [الأنفال: 29]، وقوله: }لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ{ [إبراهيم: 7].

3. وكل موضع رتب فيه الحكم على ما قبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم.

4. وكل موضع تقدم ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب.

5. وكل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا أفاد التسبيب فإن العلة الغائية علة للعلة الفاعلية.

ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر) . (ابن القيم، 2014، 2 / 108).

2) إثبات أن الجزاء من جنس العمل.

قرر ابن القيم قاعدة (الجزاء من جنس العمل) من خلال تتبع شواهدها الشرعية الدالة عليها، وفي ذلك يقول رحمه الله: (وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضا عن كل شيء، جزاء وفاقا، فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: }وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{ [الطلاق: 1-2]، ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئا أعاضه الله خيرا منه.

ومنها: قوله تعالى: }فَاذْكُرُونِي. أذكركم{ [البقرة: 152].

ومنها: قوله في الحديث القدسي "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه".

ومنها: قوله: "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا" الحديث . (ابن القيم، 2019، 4 / 221).

3) الجمع بين جمال الظاهر وجمال الباطن في القرآن.

يقرر رحمه الله أن الله في كتابه جمع بين جمال الظاهر وجمال الباطن، فيقول: "وقد جمع سبحانه بين الجمالين أعني جمال الظاهر وجمال الباطن في غير موضع من كتابه.

منها: قوله تعالى: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير" [الأعراف: 26].

ومنها: قوله تعالى في نساء الجنة: "فيهن خيرات حسان" [الرحمن: 70]، فهن حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله تعالى: "نضرة وسروا" [الإنسان: 11]، فالنضرة جمال الوجوه، والسرور جمال القلوب.

ومنها: قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة" [القيامة: 22-23] فالنضرة تزين ظواهرهم، والنظر يجمل بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: "وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا" [الإنسان: 21] فالأساور جملت ظواهرهم، والشراب الطهور طهر بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: "إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد" [الصافات: 6-7] فجمل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين".

ومع كون هذا المعنى لطيفًا ودقيقًا إلا أن ابن القيم بعد استقرائه وتتبعه استطاع استخراج آيات عدة في القرآن تدل عليه وتشير إليه.

4) حصر معاني وموضوعات القرآن الكريم.

من أبرز نماذج الاستقراء عند ابن القيم هو حصره لموضوعات القرآن في جميع آياته، حيث جعل آيات القرآن الكريم كلها تدور في عشرة أقسام لا تخرج عنها، وهذا لا يتأتّى إلا بعد تتبع دقيق وطول تأمل ونظر للخروج بتلك النتيجة، يقول رحمه الله: (ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن وهي عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه سبحانه نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأنه واحد لا شريك له وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته محتجا به على من ألحد في أسمائه وتوحيده وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها.

القسم الثالث: ما اشتمل عليه بدء الخلق وإنشاؤه ومادته وابتداعه له وسبق بعضه على بعض وعدد أيام التخليق وخلق آدم وإسجاد الملائكة وشأن إبليس وتمرده وعصيانه وما يتبع ذلك

القسم الرابع: ذكر المعاد والنشأة الأخرى وكيفيته وصورته وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال وإعادتهم خلقا جديدًا.

القسم الخامس: ذكر أحوالهم في معادهم وانقسامهم إلى شقي وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك. القسم السادس: ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل

بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان.

القسم السابع: الأمثال التي ضربها لهم والمواعظ التي وعظهم بها ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاقها ليزهدوا فيها ويتركوا الإخلاد إليها ويرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم.

القسم الثامن: ما تضمنه من الأمر والنهي والتحليل والتحريم وبيان ما فيه طاعته ومعصيته وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق وما يكرهه ويبغضه منها وما يقرب إليه ويدني من ثوابه وما يبعد منه ويدني من عقابه وقسم هذا القسم إلى فروض فرضها وحدود حدها وزواجر زجر عنها وأخلاق وشيم رغب فيها.

القسم التاسع: ما عرفهم إياه من شأن عدوهم ومداخله عليهم ومكايده لهم وما يريده بهم وعرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيده منهم وما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم وبينه وما يتبع ذلك.

القسم العاشر: ما يختص بالسفير بينه وبين عباده عن أوامره ونواهيه وما اختصه به من الإباحة والتحريم وذكر حقوقه على أمته وما يتعلق بذلك.

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن) . (ابن القيم، 2020، 1 / 383).

الثانية: استقراء موارد اللفظة في القرآن.

لا يقتصر الاستقراء والتتبع عند ابن القيم على المعاني وحدها وما يتعلق بالحقائق الذهنية والتصورات، بل هو كذلك يستقرئ الألفاظ ويتتبعها في القرآن وينظر في تركيبها والسياقات التي جاءت فيها ثم يصل من خلال ذلك إلى المعاني والدلالات التي دلت عليها والمتضمنة لها.

وهذا نافع في إزالة الاشتباه الذي قد يطرأ على معنى لفظ من الألفاظ، ويقطع الطريق كذلك على من يريد تحريف معاني الآيات بما لا تسعف به اللغة والتركيب والسياقات، وقد استخدم ابن القيم ذلك في الرد على أهل التأويل لنصوص الصفات وغيرهم من الفرق الإسلامية المخالفة لمنهج السلف.

وأورد فيما يلي نماذجَ وأمثلةً لذلك:

1. لفظة (الصراط) ومعانيها.

وردت لفظة (الصراط) في القرآن مضافة إلى الله ومضافة إلى العباد، فهل هما بمعنى واحد، أم أن اختلاف إضافتها يحتم اختلاف المعنى، وما يكون معناها إذن في الحالين، يكشف ابن القيم عن ذلك بعد تتبع للفظة وموارادها فيقول رحمه الله: (والصراط تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: "وأن هذا صراطي مستقيما" [الأنعام: 153]، وقوله: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له

ما في السماوات وما في الأرض" [الشورى: 52-53] وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، وهم المارون عليه) . (ابن القيم، 2019، 1 / 15).

2. وصف الكفار والفساق بالعبودية.

يصف سبحانه في القرآن المؤمنين وأهلَ طاعته بوصف العبودية، وذلك واضح المأخذ إذ أنهم استجابوا لشرعه وانقادوا لأمره فاستحقوا هذا الوصف.

ويرد في القرآن كذلك وصف أهل الكفر والعصيان بكونهم عبادٌ لله، لكن هذه العبودية هي عبودية الربوبية اللازمة لكل مخلوق على الأرض، وهي ليست صفة مدح كما هو الحال في عبودية المؤمنين.

يتتبع ابن القيم هذا الوصف في القرآن ويخرج فيه بالنتيجة التالية فيقول رحمه الله: (وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما منكرًا، كقوله: "إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا" [مريم: 93]، والثاني معرفا باللام، كقوله: "وما الله يريد ظلما للعباد" [غافر: 31]، "إن الله قد حكم بين العباد" [غافر: 48].

الثالث: مقيدا بالإشارة أو نحوها، كقوله: "أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء" [الفرقان: 17].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله: "أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون" [الزمر: 46].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" [الزمر: 53. (ابن القيم، 2019، 1 / 162).

3. لفظ (اليد) وموارده في القرآن.

من الصفات الخبرية الثابتة لله التي أنكرها المبتدعة صفة اليد، وقد أوّلوها بأن المراد بها النعمة، وبيّن ابن القيم ما يتعلق بهذا المسألة والحق فيها بياناً موسعا ومطولا في كتاب الصواعق المرسلة عند حديثه عن المجاز، وكان من ضمن الأدوات التي استخدمها في الجواب عن هذا التأويل هو تتبع اللفظة في القرآن والتركيب الذي جاءت عليه والسياق الذي وردت فيه ليثبت بطلان ذلك التأويل وأنه لا يمكن الفرار من إثبات صفة اليد لله عز وجل على الوجه اللائق به.

يقول رحمه الله مستقرأً موارد لفظة (اليد) في القرآن ومبينا بُعد تأويلها بالنعمة: (لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفردًا ومثنى ومجموعًا، فالمفرد كقوله: "بيده الملك" [الملك: 1]، والمثنى كقوله: "خلقت بيدي" [ص: 75]، والمجموع كقوله: "عملت أيدينا" [يس71].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما فقال: "خلقت بيدي" [ص: 75]، وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء، فهذه ثلاثة فروق، فلا

يحتمل "خلقت بيدي" [ص: 75] من المجاز ما يحتمله "عملت أيدينا"؛ فإن كل أحد يفهم من قوله عملت أيدينا ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله "فبما كسبت أيديكم" [الشورى: 30]، وأما قوله: "خلقت بيدي" [ص: 75]، فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟! فكيف إذا ثنيت؟!) . (ابن القيم، 2020، 1 / 92).

4. لفظ (الحسنات والسيئات).

غلطت فرقتا القدرية والجبرية في مسألة أفعال العباد، إذ نفت الأولى كونها من خلق الله، والثانيةُ جعلت العباد مجبورين على أفعالهم ليس لهم فيها اختيار.

وكان مما غلطت في الاستدلال به الطائفتان الآيات الوارد فيها لفظ (الحسنات والسيئات)، وقد نبه ابن القيم على ذلك بتتبع هذه اللفظة في القرآن وكيف جاءت وما المراد بها وبين منشأ غلط هاتين الطائفتين في هذا الاستلال الخاطئ، وأن الحسنات والسيئات تأتي بمعنى الطاعات والمعاصي وتأتي بمعنى النعم والمصائب، فيقول رحمه الله في سياق مناظرة بين السني والمخالفين في القدر: (قال السني: أخطأتما جميعا في فهم الآية أقبح الخطأ ومنشأ غلطكما إن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها الطاعات والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري وهذا وهم محض في الآية وإنما المراد بها النعم والمصائب ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة فقوله تعالى: "إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها" [آل عمران: 120] وقوله: "إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل" [التوبة: 50].

وقوله: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات" [الأعراف: 168] ... المراد في هذا كله النعم والمصائب وأما قوله: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها" [الأنعام: 160] وقوله: "إن الحسنات يذهبن السيئات" [هود: 114]، وقوله: "فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات" [الفرقان: 70]، والمراد به في هذا كله الأعمال المأمور بها والمنهي عنها). (ابن القيم، 2014، 2 / 24).

فيتبين من خلال ما سبق أن الاستقراء ضابط من ضوابط التفكير عند ابن القيم وأنه يتجلى في كتاباته بوضوح، فيجد القارئ استقراءات للمعاني وشواهدها في القرآن وكذلك استقراءً للألفاظ ومواردها للوصول لنتائج دقيقة وصحيحة، وأنه باستخدام الاستقراء رد كثيرا من الآراء الباطلة والمنافية للحق.

المبحث الثاني: ضابط الإنصاف.

- المطلب الأول: تعريف الإنصاف.

الإنصاف هو العدل بإعطاء الحق لمستحقه وعدم بخسه إياه. يقول ابن منظور:)والنصف والنصفة والإنصاف: إعطاء الحق، وقد انتصف منه، وأنصف الرجل صاحبه إنصافا، وقد أعطاه النصفة. ابن الأعرابي: أنصف إذا أخذ الحق وأعطى الحق) . (ابن منظور، 1970، 332/9).

وقد أمر الله في كتابه بالتزام العدل فقال: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)، ونهى عن مجانبة العدل حتى مع من بيننا وبينهم بُغضٌ وعداوة فقال سبحانه: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى" [النحل:90] ، "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط" [المائدة:8]، وجاء في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يقول: "يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا".

- المطلب الثاني: منزلة الحق عند ابن القيم.

يُعلي ابن القيم رحمه الله من قيمة الحق ويؤكد على أنه مقدم مطلقًا وأنه لا ينبغي المجاملة في أمور الدين والشريعة على حساب بيان الحق وتوضيحه، يقول رحمه الله: "فإن حجة الله يجب المصير إليها مع الأب كانت أو الابن أو العبد أو السيد، ولو حج الرجلُ أباه بحقٍ وجب المصير إلى الحجة" . (ابن القيم، 2014، 1 / 46).

ويبين رحمه الله أن ذلك هو مسلك أهل البصيرة المتبعين هدى الله والمستقيمين على منهجه السوي، إذ يقبلون الحق من أين جاءهم ويردون الباطل من أين جاءهم، فيقول: "وأهل البصيرة والإنصاف أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُردّ" . (ابن القيم، 2019، 2 / 265).

ويَبرُز ذلك أيضاً في تعامله ونقده مع من أخطأ الحق وجانب الصواب، فإنه لا يجامل ولا يداهن، فيقول في حق شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي رحمه الله الذي شرح ابن القيم كتابه (منازل السائرين): "شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم صلى الله عليه وسلم فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبين ما فيه" . (ابن القيم، 2019، 2 / 262).

وفي موضع آخر بعد أن بين سبب وقوع الشيخ رحمه الله في الخطأ، ذكر أنه لولا إحقاق الحق وأنه أوجب من حفظ حق الشيخ لأمسك عن الكلام فيه، فيقول رحمه الله: "والذي أوجب للشيخ هذا القدر: الاسترسال في القدر، والفناء في شهود الحقيقة الكونية، فإنه من الراسخين فيه، الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم،

وهو شديد في إنكار الأسباب، وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمةٍ أعلام، ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع" . (ابن القيم، 2019، 2 / 270).

ويؤكد على قبول الحق حتى إن جاءنا ممن يُعد مخطئًا في بعض أبواب الدين، وألا يمنعنا من ذلك الهوى والتعصب، فيقول رحمه الله: "ولا يُرد القول بمجرد كون المعتزلة قالوه - فِعْلَ أهل الهوى والتعصب - بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله" . (ابن القيم، 2019، 1 / 431).

- المطلب الثالث: مجالات الإنصاف عند ابن القيم.

نتيجةً لهذا المبدأ الواضح عند ابن القيم من إعلائه لقيمة الحق وعدم المساومة فيه؛ تراه متحليًا بالإنصاف في تقويمه للأشخاص والأفكار والطوائف، فيثبت ما عندهم من الحق ويقبله وينفي باطلهم ويرده، يقول رحمه الله مقررا أهمية الإنصاف وفضيلته: "والله تعالى يحب الإنصاف، بل هو أفضل حِلية تحلّى بها الرجل، خصوصا من نصب نفسه حَكَماً بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله: "وأمرت لأعدل بينكم" فورثة الرسول منصبهم العدل بين الطوائف وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه، بل يكون الحق مطلوبه، يسير بسيره وينزل بنزوله، يدين دين العدل والإنصاف ويُحكّم الحجة، وما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو العلم الذي قد شمر إليه، ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، لا يثني عنانه عنه عذل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يصده عنه قول قائل" . (ابن القيم، 2010، 3 / 575).

ويمكن إبراز هذا الضابط من خلال النظر في مجالين، وهما: موقفه من الأشخاص وموقفه من الطوائف المخالفة.

المجال الأول: إنصافه للأشخاص.

(1موقفه من الهروي صاحب منازل السائرين.

يظهر الإنصاف عند ابن القيم جليًّا في موقفه من أبي إسماعيل الهروي رحمه الله ونقده وتقويمه له وهو يشرح كتابه، فتجده يترحم عليه رغم ما أدى إليه خطؤه من فتح باب الكفر والإلحاد، فيقول في حقه: "فرحمة الله على أبي إسماعيل، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم، وما هو منهم، وغره سراب الفناء، فظن أنه لجة بحر المعرفة، وغاية العارفين، وبالغ في تحقيقه وإثباته، فقاده قسرًا إلى ما ترى" . (ابن القيم، 2019، 1 / 227).

ويبرئه رحمه الله من طريقة أهل الكفر والاتحاد: "وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد، وإن كانت عبارته موهمة، بل مفهمة ذلك" (ابن القيم، 2019، 1 / 229). ويقول عنه: "لكن صاحب المنازل بريء من هؤلاء وطريقتهم، وهو مُكفِّر لهم، بل مُخرجٌ لهم من جملة الأديان" . (ابن القيم، 2019، 1 / 359).

ويستصحب منزلته ومحله من العلم الذي يوجب ألا يُهدَر كل ذلك لأجل زلل أو خطأ وقع فيه، وأنه ليس بمعصوم بل يؤخذ منه ويرد، فيقول: "ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه، وإساءة الظن به، فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يجهل، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم، صلوات الله وسلامه عليه، والكامل من عد خطؤه" . (ابن القيم، 2019، 1 / 309).

وفي موضع آخر أيضًا يؤكد ذلك وأن مكانته ومنزلته تستدعي إحسان الظن به وبكلامه فلا يحمل على وجه باطل بعيد: "هذا الكلام - إن أخذ على ظاهره - فهو من أبطل الباطل، الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين، لنُسِبَ إلى لازم هذا الكلام، ولكن من عدا المعصوم - صلى الله عليه وسلم - فمأخوذ من قوله ومتروك، ومن ذا الذي لم تزل به القدم، ولم يَكْبُ به الجواد؟" . (ابن القيم، 2019، 1 / 356).

ويستدل على مكانة الشيخ ومرتبته من العلم بكلامه هو وما قرره بنفسه، فيقول: "وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبين مرتبته من السنة، ومقداره في العلم، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل، على عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك" . (ابن القيم، 2019، 2/ 340).

ومن إنصافه له أن جعل بعض كلامه الموهِم من قبيل المتشابه الذي يرد إلى المحكم ولا يؤخذ به، فيقول: "وقد كان شيخ الإسلام في ذلك موافقًا للأمر وغضبه لله ولحدوده ومحارمه ومقاماته في ذلك شهيرة عند الخاصة والعامة، وكلامه المتقدم بيّنٌ في رسوخ قدمه في استقباح ما قبحه الله واستحسان ما حسَّنه الله، وهو كالمحكم فيه وهذا متشابه فيرد إلى محكم كلامه" . (ابن القيم، 2015، 1 / 52).

(2 قبول خبر ورواية أهل الفسق غير المعروفين بالكذب.

ويظهر كذلك الإنصاف عند ابن القيم حين تحدث عن حال أهل الفسق، وأن كثيرا منهم صادقون في نقل الرواية والأخبار رغم فسقهم، فلا ينبغي أن يمنع ذلك من قبول ما يقولون ويروون، يقول رحمه الله: "وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يُرَد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولاسيما مَن فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحرٍّ للصدق، فهذا لا يُرد خبره ولا شهادته" . (ابن القيم، 2019، 1 / 555).

(3 المعصية لا تسلب الولاية من العبد ولا تمنع من الإنكار عليه.

ومن إنصافه أيضًا رحمه الله أنه لا يجعل المعصية التي يقع فيها ولي الله سببًا لإخراجه عن أصل الولاية، ولا تمنعنا ولايته من الإنكار عليه، فيقول رحمه الله: "وكون ولي الله يرتكب المحظور والمكروه

متأولاً أو عاصيًا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله" . (ابن القيم، 2019، 2 / 161).

المجال الثاني: إنصافه للفرق الإسلامية المخالفة.

يُعَدّ ابن القيم رحمه الله من أشهر وأهم العلماء والأئمة الذين انبرَوْا لمناقشة المذاهب والفرق والطوائف المخالفة لمنهج أهل السنة في أبواب الدين والإيمان، ويتجلى إنصافه معهم من خلال النماذج والنقاط التالية:

1) إقرار الحق الذي عندهم وعدم رده لأجل باطلهم.

تجد ابن القيم حين يعالج مقالاتهم وتقريراتهم يؤكد على أنه يوجد عندهم بعض الحق الذي لا ينبغي رده، وإنما نرد ما جاؤوا به من باطل، يقول رحمه الله عند مناقشته للمخالفين في باب القدر من القدرية والجبرية: "وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب وبعضهم أقرب إلى الصواب وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى لا على إبطال ما أصابوا فيه" . (ابن القيم، 2015، 1 / 176).

ويبين أن من أسباب نشأة الاختلاف المذموم هو عدم التنبه لهذا المعنى والمبادرة لرد كل ما عند الخصم، وأن من سِمَةِ أهل الحق الإنصافَ في ذلك وإثباتَ الحق الذي عند غيرهم والأخذَ به، يقول رحمه الله: "والاختلاف المذموم كثيرا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغيا ومنافسة، فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين، بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم: "فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" [البقرة: 213]" (ابن القيم، 2020، 1 / 266)، ويقول: "فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم، فإنهم يوافقونهم عليه، ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل" . (ابن القيم، 2019، 2 / 30).

ويقول رحمه الله: "والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق، فيستعين به على مطلبه، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ويهدره به، فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم" . (ابن القيم، 2019، 2 / 255).

2) غلط المعتزلة والأشاعرة في التحسين والتقبيح وبيان الموقف الحق.

في مسألة التحسين والتقبيح العقليين التي تباينت واختلفت فيها الطوائف، يبين رحمه الله ما أخطأت فيه كل طائفة من المعتزلة والأشعرية في تقريراتهم، فيقول: "ولما ذهب المعتزلة ومن وافقهم إلى تلازم الأصلين استطلتم عليهم، وتمكنتم من إبداء تناقضهم وفضائحهم، ولما نفيتم أنتم الأصلين جميعًا استطالوا عليكم، وأبدوا

من فضائحكم وخلافكم لصريح العقل والفطرة ما أبدوه، وهم غلطوا في تلازم الأصلين، وأنتم غلطتم في نفي الأصلين.

والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل أنه لا تلازم بينهما، وأن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات، ولكن لا يترتب عليهما ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي" . (ابن القيم، 2019، 1 / 361).

3) بعض عبارات المتصوفة لا يقصدون بها معنى باطلاً.

عند حديثه عن أهل التصوف يبين أنهم في بعض عباراتهم لا يقصدون بها معنى باطلا أو فاسدا، وأن ذلك عائد لطريقتهم في التعبير، نتج عنه الخلل في التعامل معهم وفي فهم عباراتهم وتقويمها، يقول رحمه الله: "فاعلم أن في لسان القوم من الاستعارات، وإطلاق العام وإرادة الخاص، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه: ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم، ولهذا يقولون: نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة، والإشارة لنا والعبارة لغيرنا، وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد، ويريدون بها معنى لا فساد فيه، وصار هذا سببا لفتنة طائفتين: طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم، فبدعوهم وضللوهم، وطائفة نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم، فصوبوا تلك العبارات، وصححوا تلك الإشارات، فطالب الحق يقبله ممن كان، ويرد ما خالفه على من كان" . (ابن القيم، 2019، 4 / 271).

4) سوء موقف الجبرية من حديث الاحتجاج وإثبات صحة رد القدرية عليهم.

وفي سياق كلامه عن حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فحج آدم موسى، فحج آدم موسى". (البخاري، 3409، ومسلم 2652).

بين رحمه الله موقف الطوائف من هذا الحديث، وأن المعتزلة القدرية ردوه لأصلهم في إنكار القدر، وفي المقابل جعلت الجبرية وجه الحجة فيه كون آدم شهد الحكم وجريانه على الخليقة وأنه مقهور مربوب مدبر لا يملك حيلة ولا قوة، فقال مُبينًا فساد المذهبين وأن الثاني شر من الأول: "وهذا المسلك أبطل مسلك سلك في هذا الحديث، وهو شر من مسلك القدرية في رده، وهم إنما ردوه إبطالا لهذا القول وردا على قائليه، وأصابوا في ردهم عليهم وإبطال قولهم وأخطأوا في رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم". (ابن القيم، 2015، 1 / 47).

فتجد بعد هذه الأمثلة أن الإنصاف قيمة سامية وضابط مهم في التفكير تحلى به ابن القيم والتزمه خير التزامٍ، ظهر ذلك في موقفه من الأشخاص الذي وقعت منهم أخطاء وزلات فلم يمنع ذلك من قبول الحق منهم، وكذلك في موقفه من الفرق المخالفة التي وُجد عندها حق وباطل فلم يرد الحق الذي عندهم لأجل باطلهم، وكل ذلك عائد لمراعاة ابن القيم لقيمة الحق وإعلائه من شأنه وعدم المجاملة على حسابه.

المبحث الثالث: ضابط حسن اللفظ وسلامة التعبير.

يُعَد الكلام والألفاظ الوسيلة التي جُعلت للتخاطب بين البشر والطريقة التي بها يُظهر الإنسان ما يختلج في باطنه ويدور في جنانه، يقول ابن القيم رحمه الله مبينًا ذلك: "لما جعل الله سبحانه نوع الإنسان يحتاج بعضه إلى بعض فلا يمكن لإنسان أن يعيش وحده بل لا بد له من مشارك ومعاون من بني جنسه، كما قيل: الإنسان مدني بالطبع، وكان لا يعرف كل منهم ما يريد صاحبه من الأفعال والتروك إلا بعلامة تدل على ذلك، وتلك العلامة إما تحريك جسم من الأجسام المنفصلة عنه أو تحريك بعض أعضائه، فيجعل لكل معنى حركة خاصة، ومعلوم أن في الأول من العسر والمشقة وعدم الإحاطة بالتعريف ما يمنع وضعه.

فكان تحريك الأعضاء أسهل وأدل وأعم، وكانت حركة الأعضاء نوعين: نوع للبصر ونوع للأذن، والذي للأذن أعم والإنسان إليه أحوج، وكان أولى هذه الأعضاء بأن يجعل حركاتها دالة معرّفة هو اللسان؛ لأن حركته أخف وأسهل وتنوعها أعظم وأكثر من تنوع حركة غيره وترجمته عما في القلب أظهر من ترجمة غيره، ويتمكن المعرف بحركاته من حركات مفردة ومؤلفة يحصل بها من الفرق والتمييز ما لا يحصل بغيره كان أقرب الطرق إلى هذا المقصد هو الكلام الذي جعله الله سبحانه في اللسان وجعله دليلاً على ما في الجنان وجعل ذلك من دلائل ربوبيته ووحدانيته وكمال علمه وحكمته.

قال الله تعالى: "الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان" [الرحمن: 1: 4] وقال تعالى: "ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين" [البلد: 8: 10] .

- أهمية اللفظ في حسن الفهم وسلامة التصور:

ولذلك فإن الاعتناء بحسن اللفظ وانتقاء ما يناسب المعنى المراد التعبير عنه من أهم ضوابط التفكير الصحيح والتصور السليم للحقائق، وكثير من الانحرافات التي وقعت عند بعض الفرق من المسلمين كانت ناتجة عن خلل في هذا الأمر، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "وأكثر آفات الناس من الألفاظ، ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه، والتعبير المطابق، فيتولد من ضعف التصور، وقصور التعبير: نوع تخبيط، ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم، بحسب قصورهم، وبعدهم من العلم" . (ابن القيم، 2019، 3 / 471).

ويقول أيضًا: (وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا" [الأنعام: 112]، فسماه زخرفا، وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به) . (ابن القيم، 2008، 234).

- زخرفة الألفاظ واللعب بها أحد أساليب أهل الضلال:

يبين ابن القيم رحمه الله إحدى طرق أهل الباطل في إغراء الناس بباطلهم واستمالتهم إليه وأن ذلك عائد إلى زخرفة الألفاظ واللعب بالمصطلحات، فيقول: "فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا ينفقونه به، وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السُّكَّة، ليس لهم نقد النقاد: "من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" [الكهف: 17] .

ويشرح ذلك في موضع آخر فيقول مُبينًا سبب قبول الناس للباطل: "السبب الأول: أن يأتي به صاحبه مموهًا مزخرفَ الألفاظ ملفّقَ المعاني مكسوًّا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته.

قال الله تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون" [الأنعام: 112]، فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصَغْوِها وميلها إليه ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك" . (ابن القيم، 2020، 1/ 211).

وفي المقابل يستخدمون للحق ألفاظًا مستبشعة تُنَفّر عنه وتجعله مستهجنًا لتنبوَ عنه الأسماع وتنآى النفوس، يشرح ابن القيم ذلك جاعلاً إياه أحد مسالك أهل الزيغ والضلال: "أن يُخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة تنفر عنها القلوب وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها

وصولا إلى القلوب وأشدها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ" . (ابن القيم، 2020، 1/ 213).

- معالم وإشارات في التعامل مع الألفاظ:

ولشدة أثر اللفظ على تفكير الإنسان وعلى قبوله للمعاني أو ردها يضع ابن القيم عددا من المعالم التي تضبط هذا الأمر، منها:

1- اعتبار الذوق العربي في التعبير والفهم، ومعرفة استعمالات أهل اللغة للألفاظ، يقول رحمه الله: "والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا" . (ابن القيم، 2019، 1 / 120).

وهذه قاعدة منهجية ومركزية، وهي أحد الأسباب التي تجعل للصحابة رضي الله عنهم مكانةً في فقه وفَهم مراد الشارع، لكونهم أهل لغة صحيحة لم تفسد بالعجمة كما حصل في الأزمنة بعدهم.

2- الاهتمام بالألفاظ الشرعية التي وردت في القرآن والسنة وحملها على معانيها الصحيحة، يقول ابن القيم: "وهذا محافظة منه صلى الله عليه وسلم على الأسماء التي سمى الله بها العبادات، فلا تُهجر ويؤثر عليها غيرها، كما فعله المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص، وإيثار المصطلحات الحادثة عليها، ونشأ بسبب هذا من الجهل والفساد ما الله به عليم" (ابن القيم، 1998، 320/2).

ويقول منتقداً أبا إسماعيل الهروي في استخدامه بعض الألفاظ: "وأحسن من التعبير بالاتصال: التعبير بالقرب، فإنها العبارة السديدة التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام" . (ابن القيم، 2019، 3 / 498).

ويقول كذلك: "لكن الأولى العدول عن لفظ المسامرة إلى المناجاة، فإنه اللفظ الذي اختاره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذا، وعبر به عن حال العبد بقوله: "إذا قام أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه" (البخاري 405، ومسلم 551)، وفي الحديث الآخر: "كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض" (أبو داوود 1332، الألباني 7 / 455)، فلا تعدِل عن ألفاظه -صلى الله عليه وسلم- فإنها معصومة، وصادرةٌ عن معصوم، والإجمال والإشكال في اصطلاحات القوم وأوضاعهم" . (ابن القيم، 2019، 3 / 502).

3- النظر في حال المتكلم ومعرفة مذهبه وما يدعو إليه ليتبين مراده، يقول مبينًا أثر ذلك في الفهم: "والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عليه" . (ابن القيم، 2019، 4 / 552).

ويجد القارئ ذلك مطبقًا عنده رحمه الله إذ يقول في أحد المواضع بعد بيان إشكال في اللفظة المستخدمة: "في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه وتعظيمه لله ورسوله، ولكن أبى الله أن يكون الكمال إلا له" . (ابن القيم، 2019، 3 / 577).

4- الحذر من الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معان، وأن الواجب هو الاستفصال فيها وقبول المعاني الصحيحة ورد المعاني الباطلة، يقول رحمه الله: "فأما أهل العلم والإيمان فطريقهم عكس هذه الطريقة من كل وجه، يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل الذي يُعتمد عليه، ويرد ما يتنازع الناس فيه إليه، فما وافقه كان حقا، وما خالفه كان باطلا، وإذا ورد عليهم لفظ مشتبه ليس في القرآن ولا في السنة لم يتلقوه بالقبول ولم يردوه بالإنكار حتى يستفصلوا قائله عن مراده: فإن كان حقًا موافقًا للعقل والنقل قبلوه، وإن كان باطلاً مخالفًا للعقل والنقل ردوه، ونصوص الوحي عندهم أعظم وأكبر في صدورهم من أن يقدموا عليها ألفاظا مجملةً لها معانٍ مشتبهة" . (ابن القيم، 2020، 2/ 627).

ويقول أيضًا: "فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها، فإنها أصل البلاء، وهي مورد الصديق والزنديق" . (ابن القيم، 2019، 3 / 578).

ويبين خطأ المتكلمين في تعاملهم مع ألفاظ القرآن والسنة والخلل الذي وقعوا فيه باستحداثهم معاني لها ثم إلباسها على الألفاظ الشرعية فيقول: "أن كثيرًا من ألفاظ القرآن والسنة قد صار لها معان اصطلح عليها النظار والمتكلمون وغيرهم، وأَلِف ذلك الاصطلاح وجرى عليه النشء وصار هو المقصود بالتخاطب وإليه التحاكم، فصار كثير من الناس لا يعرف سواه فلما أرادوا أن يطابقوا بين معاني ألفاظ القرآن وبين تلك المعاني التي اصطلحوا عليها أعجزهم ذلك.

مثال ذلك لفظ الجسم في القرآن هو البدن كما قال تعالى: "وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم" [المنافقون: 4]، وهم اصطلحوا على تسمية كل قائم بنفسه جسما مرئيا كان أو غير مرئي، وسموا الموصوف بالصفات جسما وسموا من له وجه ويدان جسما، ثم نفوا الجسم عن الصانع وأوهموا أنهم ينفون معناه لغة وقصدهم نفي معناه اصطلاحا، فسموه بخلاف اسمه في اللغة ونفوا به ما أثبته الرب لنفسه من صفات الكمال". (ابن القيم، 2020، 1 / 374).

فيتبين للقارئ من خلال هذا المبحث مدى عناية ابن القيم بموضوع الألفاظ والتعبيرات، لا سيما إن كان الأمر متعلقا بالشرع، وتأكيده أنه مؤثر في فهم الإنسان وسلامة تصوره للمعاني، وبيانه كيف يستخدم أهل الباطل زخرفة الألفاظ لترويج باطلهم أو تشويه الحق الذي يخالفهم، ووضعه لعدد من المعالم التي تضبط هذا الأمر؛ كاعتبار العربية وقواعدها، واستخدام الألفاظ الواردة في نصوص الشرع للمعاني الموضوعة لها، واعتبار حال القائل وسيرته في فهم كلامه، ثم أخيرا التفصيل في الألفاظ المجملة التي تحتمل معان عدة بعضها صحيح وبعضها باطل.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسجل في نهاية هذا البحث مجموعة من النتائج والتوصيات:

- أولاً: النتائج.

1. أهمية التفكير وما يتعلق به في معالجة مشكلات الحياة عموما والمشكلات المعرفية والعلمية خصوصا.
2. عناية الدين والقرآن بقضية التفكير والحث على إعمال العقل وعدم تعطيله مع الحفاظ على الحدود التي يجري فيها دون مجاوزتها.
3. ظهور منهجية واضحة في التفكير لدى الإمام ابن القيم رحمه الله تجلت في مختلف مؤلفاته ومختلف العلوم التي تناولها وحقق فيها.
4. مما تحلى به تفكير ابن القيم مجموعةٌ من الضوابط المصححة لعمليات العقل والمعينة على الوصول لنتائج مستقيمة ومطردة، ومن تلك الضوابط: الاستقراء، والإنصاف، والعناية بأصول الأفكار والأقوال، والعناية بحسن اللفظ وسلامة التعبير.

- ثانيًا: التوصيات.

1. تكثيف الجهود في إبراز الملامح المنهجية للتفكير في الإسلام ودور الوحي في ذلك من خلال تأمل نصوص القرآن وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام.
2. دراسة تراث الإسلام العلمي والفكري في شتى العلوم والفنون واستنباط مناهج التفكير وقضاياه من خلاله.
3. دراسة الشخصيات العلمية ذات الأثر العميق في التاريخ الإسلامي واستجلاء جوانب التفكير المستخدمة لديها وآلياتها والاستفادة من ذلك في معالجة مشكلات الحياة المعاصرة.
4. الاستفادة مما كتب في الثقافات غير الإسلامية لا سيما المعاصرة في قضايا التفكير باعتباره مشتركا بشريا مع التنبّه لما يخالف قيم ديننا واجتنابه.

المراجع

- ابن القيم حياته آثاره موارده، بكر أبو زيد، دار العاصمة، ط1.
- إرواء الغليل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط2.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط1.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط15.
- تدريس مهارات التفكير، جودت أحمد سعادة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1
- تعليم التفكير ومهاراته، سعيد عبد العزيز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1
- تعليم التفكير، فتحي جروان، دار الفكر، ط3
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق حكمت بسير ياسين، دار ابن الجوزي، ط1
- الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط2
- زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط1.
- سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار التأصيل، ط1.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار التأصيل، ط1.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق زاهر بلفقيه، دار عالم الفوائد، ط1
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، عناية محمد زهير الناصر، دار المنهاج، ط3.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، عناية محمد زهير الناصر، دار المنهاج، ط1.
- صحيح وضعيف سنن أبي داوود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق حسين بن عكاشة، دار عالم الفوائد، ط1
- القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروزآبادي، مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، ط8.
- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ، المكتبة العصرية، ط5.
- مدارج السالكين، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط1
- مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1.

References

- Al-A‘lām, Khair Al-Din Al-Zarkali, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, 15th Edition.
- A‘lām al-muwaqqi‘īn ‘an Rabb al-‘ālamīn, Ibn Al-Qayyim, investigated by Muhammad Ajmal Al-Islah, Dar Alam Al-Fawa’id, 1st Edition.
- Al-Dā’ wa-al-dawā’, investigated by Muhammad Ajmal Al-Iṣlāḥī, Dar Alam Al-Fawa’id, 2nd Edition.
- Al-Qāmūs Al-Muḥīṭ, Majd-Deen Al-Fayrouzabadi, Heritage Investigation Office, Al-Resala Foundation, 8th edition.
- Al-Ṣawā‘iq al-mursalah ‘alá al-Jahmīyah wa-al-Mu‘aṭṭilah, investigated by Hussain bin Okasha, Dar Alam Al-Fawa'id, 1st Edition.
- Ibn Al-Qayyim, His life, His Legacies, and His Sources, Bakr Abu Zayd, Dar Al-Asima, 1st Edition.
- Irwa Al-Ghalil, Muhammad Nasser Al-Din Al-Albani, Al-Maktab Al-I, 2nd Edition.
- Lisan Al-Arab, Ibn Manzur, Dar Al Ma’aref, Cairo.
- Madārij al-Sālikīn, investigated by Muhammad Ajmal al-Iṣlāḥī, Dar Alam Al-Fawa’id, 1st Edition
- Mukhtar Al-Sihah, Muhammad bin Abi Bakr Al-Razi, investigated by Youssef Al-Sheikh, Al-Asriyah Bookstore, 5th Edition.
- Musnad Al-Imam Ahmad, investigated by Shuaib Al-Arnaout and others, Al-Resala Foundation, 1st Edition.
- Sahih Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail Al-Bukhari, Taken cared by: Muhammad Zuhair Al-Nasser, Dar Al-Minhaj, 3rd Edition.
- Sahih Muslim, Muslim bin Al-Hajjaj Al-Nisaburi, Taken cared by: Muhammad Zuhair Al-Nasser, Dar Al-Minhaj, 1st Edition.
- Shifā’ al-‘alīl fī masā’il al-qaḍā’ wa-al-qadar wa-al-ḥikmah wa-al-ta‘līl, investigated by Zaher Balfaqih, Dar Alam Al-Fawa’id, 1st Edition.
- Siyar A‘lām al-nubalā’, Muhammad bin Ahmed Al-Dhahabi, investigated by Shuaib Al-Arnaout, Al-Resala Foundation, 3rd Edition.
- Sunan Abi Dawood, Suleiman bin Al-Ash’ath Al-Sijistani, Dar Al-Ta’seel, 1st Edition.
- Sunan Al-Tirmidhi, Muhammad bin Issa Al-Tirmidhi, Dar Al-Ta’seel, 1st Edition.

- Tafsīr al-Qur'ān al-'Aẓīm, Ibn Kathir, investigated by Hikmat Yaseer Yassin, Dar Ibn al-Jawzi, 1st Edition.
- Teaching thinking and its skills, Saeed Abdul Aziz, Dār al-Thaqāfah for Publishing and Distribution, 1st Edition
- Teaching thinking skills, Jawdat Ahmed Saadeh, Dar Al-Shorouk for Publishing and Distribution, 1st Edition.
- Teaching Thinking, Fathi Jarwan, Dar Al-Fikr, 3rd Edition.
- The Sahih Hadiths Series, Muhammad Nasir-deen al-Albani, Al-Ma'ārif Bookstore, 1st Edition.
- The Sound and Weak of Sunan Abi Dawood, Muhammad Nasir-deen al-Albani, Al-Ma'ārif Bookstore, Riyadh.
- Zad Al-Ma'ad, investigated by Shuaib Al-Arnaout and Abdul Qadir Al-Arnaout, Al-Resala Publishers Foundation, 1st Edition.